هزيمة اسرائيل حتمية

■ محسن باك آيين

على اعتاب اليوم العالمي للقدس تتحدث وكالات الانباء العالمية، بما في ذلك الصحافة الصهيونية، عن الاوضاع الاقتصادية والسياسية والامنية الوخيمة للكيان الصهيوني. ومنذ عدة اشهر و مع عودة بنيامين نتانياهو الى رئاسة الحكومة الاسرائيلية، كان واضحاً ان توجهاته المتطرفة اثارت حفيظة و امتعاض الكثير من حلفاء و اصدقاء هذا الكيان، و سرعان ما ساعد في عزلة اسرائيل و انزوائها.

ان اصرار نتانياهو على تجاهل الموازين الدولية ومواثيق الامم المتحدة، ورفضه لاقامة الدولة الفلسطينية، والاصرار على مواصلة بناء المستوطنات بمحاذات المناطق التي يقطنها الفلسطينيون، والايغال بالممارسات العنصرية ازاء ذوي الاصول العربية، وانتهاك حرمة المسجد الاقصى، كل ذلك شكّل عوامل رئيسية للاحداث التي يشهدها الكيان المحتل اليوم. ولا يخفى ان مثل هذه الاحداث كانت تعصف بعلاقات اسرائيل الدولية ايضاً خلال الدورات السابقة لرئاسة نتانياهو للحكومة، غير انها باتت بنحو متسارع في المرحلة الراهنة.

ان مواقف نتانياهو غير المتوقعة في الايام الاولى من توليه رئاسة الحكومة، دفعت بالجمعية العامة للامم المتحدة للمطالبة باكثرية الآراء، باعتماد قرار محكمة لاهاي الدولية بشأن ماهية الاحتلال الاسرائيلي للاراضي الفلسطينية. وأوضح التصويت بان الدول العربية والاسلامية، وحتى تلك التي سلكت مسار التطبيع مع تل ابيب، كانت قد صادقت لصالح فلسطين. واستناداً الى النتائج التي أسفر عنها الاستفتاء الذي اجراه مركز الابحاث القطري في خمس عشرة دولة عربية، ان ٨٤ بالمائة من الذين شاركوا في الاستفتاء أعربوا عن معارضتهم لتطبيع العلاقات مع اسرائيل. علماً ان هذه النسبة بلغت ٩٩ بالمائة في بعض هذه الدول مثل الجزائر وموريتانيا.

أما الخطوة التالية لحكومة نتانياهو كانت قد تمثلت في اقتحام بن غفير، وزير الامن الداخلي للكيان المحتل، المسجد الاقصى وانتهاك حرمته، التي حظيت بردود فعل غاضبة من قبل الشعوب وكبار المسؤولين في الدول العربية والاسلامية.

ان تزامن هذه التحركات مع بطولة كأس العالم لكرة القدم، ادى الى تجلي التضامن مع الشعب الفلسطيني ومعارضة الكيان الصهيوني، سيما من قبل مشجعي المنتخبين التونسي والمغربي، ما وجه صفعة قوية للصهاينة. كما ان ردود فعل مشجعي المنتخبات الاخرى غير المسلمة مثل البرازيل والبرتغال، دفعت بعض المحللين الى اعتبار الاحداث الجانبية التي شهدتها بطولة كأس العالم بمثابة احتضار تطبيع العلاقات بين اسرائيل والدول العربية.

ان توجهات نتانياهو الداخلية، بما في ذلك تعيين مدراء مغرضين غير مؤهلين، وعدم الالتفات الى المتطلبات المعيشية للمستوطنين، وتزايد نسبة التضخم، والارتفاع الفاحش لاسعار البيوت والمواد الغذائية، وانتشار الفساد الاداري، كل ذلك ادى هو الآخر الى مضاعفة استياء وتذمر الرأي العام. ولعل هذا ما دفع صحيفة التايمز الاسرائيلية الى التنبؤ بقصر عمر حكومة نتانياهو، وان الكيان الصهيوني سرعان ما سيواجه سقوط هذه الحكومة وحلول حكومة اخرى محلها.

وفي هذا الصدد يرى خبراء ومراقبون من دول غرب آسيا، ان الدافع الرئيسي الذي يقف وراء تمادي نتانياهو في مواقفه المتطرفة وممارسة المزيد من الضغوط ضد الشعب الفلسطيني، والظهور في موقف المتشدد ازاء البرنامج النووي الايراني، يكمن في محاولة التغطية على مشكلات اسرائيل الداخلية خاصة في المجال الاقتصادي.

و على الرغم من العلاقات الوثيقة التي كانت بين الرئيس الاميركي دونالد ترامب و نتانياهو، والسياسات المتطرفة التي اقدم عليها البيت الابيض بما في ذلك انتقال السفارة الاميركية الى بيت المقدس و ابرام صفقة القرن، غير ان الكيان الصهيوني عجز عن استقطاب الاجماع الدولي، بل و حتى الاوروبي، لصالحه. وفي عهد الرئيس بايدن ايضاً كنا قد شهدنا تدني مستوى العلاقات الاميركية الاسرائيلية وإنها لم تكن قوية كما في السابق، وبالتالي ان تولي نتانياهو لرئاسة الحكومة ليس بوسعه استقطاب الاجماع الدولي لصالح هذا الكيان.

ومع الاخذ بنظر الاعتبار كل ذلك، يرى معظم الباحثين في الآفاق المستقبلية، ان وجود شخص متطرف وغير منطقي مثل نتانياهو في رئاسة الحكومة المصطنعة، إنما يصب لصالح اعداء هذا الكيان، بما فيهم الشعب الفلسطيني، ومحور المقاومة، والجمهورية الاسلامية الايرانية، وبالتالي خلق فرص جديدة لمواجهة الكيان الصهيوني الغاصب والتصدي لمخططاته.

وتشير الدراسات والبحوث التي تتناول الآفاق المستقبلية، الى ان طريقة ظهور واضمحلال النظام العنصري في افريقيا الجنوبية، تشبه الى حد كبير الاوضاع التي تمر بها اسرائيل في الوقت الحاضر. وان دراسة هذه الاوضاع والتأمل فيها يمكن ان يصور لنا بشكل نسبي مستقبل الكيان الصهيوني. ذلك ان النظام العنصري في افريقيا الجنوبية كان قد انهار وتلاشى عقب الاستفتاء العام الذي اجري في عام ١٩٩٢، وانتهى رسمياً مع تولي نلسون مانديلا لرئاسة الجمهورية عام ١٩٩٤.

وبالنسبة للاوضاع التي افضت الى ظهور نظام التمييز العنصري في كل من افريقيا الجنوبية واسرائيل، نحاول فيما يلي الاشارة بايجاز الى جانب من ذلك:

١ ـ ان كلاً من النظام العنصري في افريقيا الجنوبية والكيان الصهيوني كان قد تم تأسيسهما عام ١٩٤٨ على يد الحكومة البريطانية. وفي افريقيا الجنوبية كانت المصادقة على قانون التمييز العنصري بمساندة ودعم دعاة التمييز العنصري الاوروبيين، خاصة بريطانيا. وطوال خمسة وخمسين عاماً عانى السود من ابناء هذا البلد انواع العذاب، وضياع الحقوق الاساسية لملايين الناس. كما عمل البريطانيون

باصدارهم لوعد بالفور في عام ١٩١٧، على ايجاد (وطن قومي للشعب اليهودي) في فلسطين، وكان ذلك بمثابة مقدمة لتأسيس الكيان الاسرائيلي المصطنع، وشروع المجازر الصهيونية عام ١٩٤٨.

٢ ـ كان دور المهاجرين بارزاً تماماً في تأسيس النظام العنصري في كل من افريقيا الجنوبية واسرائيل. المهاجرون البيض الاوروبيون، خاصة من هولندا والمانيا وفرنسا وانكلترا، توجهوا الى افريقيا الجنوبية بدوافع عنصرية، وحاولوا ترسيخ وجودهم وسلطاتهم في هذا البلد، عبر مصادرة الحقوق الانسانية للسود الملونين واستخدام العنف والقمع والاضطهاد. ولدى قيام اسرائيل اضطلع اليهود المهاجرون من روسيا واوروبا و ... بدور رئيسي في ذلك. وهكذا وباحتلال الاراضي الفلسطينية ودعم ومساندة الدول الاوروبية، عملوا على اقامة الكيان الدخيل والمصطنع وتأسيس دولة اسرائيل لكل من هب ودب من المهاجرين.

٣ ـ كان الدين بمثابة العنصر المشترك الثالث في تأسيس هذين الكيانين. في افريقيا الجنوبية حاولت المسيحية ترسيخ وجودها بالاستلهام من بروستانت الكنيسة الهولندية وتحكيم افضليتهم العنصرية، وبالتالي تطبيق القوانين التي تبرر مشروعية التميز العنصري. وفي اسرائيل ايضاً، عملت الصهيونية السياسية عبر التفسير المضلل للتعاليم اليهودية، على ترويج وارساء القومية اليهودية. ومن خلال اشاعة االتوجهات البنيوية، اعتبرت اتباع هذا الدين هم العنصر الافضل. الصهيونية ومن خلال هذا التوجه، تعتبر اليهود هم اصحاب ارض فلسطين الاصليين، وبالتالي مصادرة اراضي الفلسطينيين بمختلف الاساليب الوحشية والمجازر الفضيعة.

٤ ـ توفير الامن كان بمثابة احدى الذرائع التي تم الترويج لها في ارساء النظام العنصري خلال مرحلة الحرب الباردة. وبناء على ذلك كان قرار التصدي للاتحاد السوفيتي والشيوعية. كما ان الترويج الاعلامي لتأسيس اسرائيل تمحور حول مواجهة العرب الذين يعارضون اقامة دولة يهودية. وفي الحقيقة ان كلا الكيانين كانا يواجهان معضلات امنية نظراً لافتقارهم للمشروعية، ولذلك ومن اجل توفير الامن، اعتبروا الحرب والعنف مباحاً بحق الملونين في افريقيا الجنوبية، ومع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة، وكذلك في المواجهة مع دول الجوار.

أما فيما يتعلق بانهيار نظام التمييز العنصري في افريقيا الجنوبية، ووجه الشبه بينه وبين تصدع الكيان الاسرائيلي وانهياره، فلابد من الالتفات الى عدة امور منها:

ألف ـ إثر ظهور التمييز العنصري في عقدي السبعينيات و الثمانينيات، بدأت حكومة جنوب افريقيا ببناء مستوطنات للسكان من غير البيض. وكانت الحكومة تهدف من وراء عزل الملونين عن اصحاب البشرة البيضاء، الارتقاء بالمستوى الامني للبيض. غير ان هذه المستوطنات تحولت الى مراكز لاحتجاجات السود ضد الحكومة، وظهور ما يشبه الانتفاضة الفلسطينية في جنوب افريقيا ايضاً. اسرائيل ايضاً بعد حرب الايام الستة في عام ١٩٦٧، عملت على ايجاد مستوطنات لليهود في الاراضي المحتلة لدوافع امنية، وقامت بتقديم اغراءات متعددة من قبيل الدعم المالي وخفض الضرائب وتقديم خدمات مدنية رخيصة لأجل تشجيع اليهود المهاجرين على السكن في هذه المستوطنات. وما يذكر ان بناء هذه المستوطنات قوبلت بمعارضة شديدة من قبل الفلسطينيين وبالتالي اندلاع انتفاضات متعددة.

ب ـ وعلى أثر الاحتجاجات الشعبية المستمرة في جنوب افريقيا، واستنكار المجتمع الدولي للجرائم التي يرتكبها نظام التمييز العنصري ومعارضة بناء المستوطنات، ابدت الامم المتحدة ردود فعل ازاء ذلك تجسد بمقاطعة بروتوريا، على الرغم من الدعم الذي يحظى به النظام العنصري من قبل انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة. وفي عام ١٩٦٢، اعتبرت الامم المتحدة باصدار القرار رقم ١٧٦١، وجود التمييز العنصري وانتهاك حقوق الانسان في جنوب افريقيا، يشكل تهديداً

للصلح والسلم الامني.

اسرائيل ايضاً ومع تزايد بناء المستوطنات، ادانت الامم المتحدة موقف الحكومة الاسرائيلية بمنح تراخيص بناء مستوطنات لليهود في الضفة الغربية. حتى السفير الاميركي اعتبر مواقف تل ابيب هذه تشكل خطراً على حل الدولتين في الاراضي المحتلة. كما اقدم الاتحاد الاوروبي على مقاطعة المنتجات الاسرائيلية، ومن ثم المزيد من المقاطعة العلمية و الاقتصادية، حتى في مجال العاب الترفيه و التسلية. اضافة الى تأييد الجهات الدولية صحة وجود تمييز عنصري ضد ذوي الاصول العربية داخل اسرائيل. في الحقيقة ان الجرائم المتشابهة التي ترتكب داخل افريقيا الجنوبية واسرائيل، ادّت الى ايجاد تغييرات اساسية في نظرة

المجتمع الدولي ازاء هذين النظامين ا لعنصر يين .

ج ـ بروز الاختلافات الداخلية في جنوب افريقيا ازاء كيفية المواجهة مع الملونين وتصاعد الاحتجاجات الشعبية، ادى الى استقالة رئيس جمهورية جنوب افريقيا المجرم بيك بوتا و ان يحل محله دكلرك، الذي اضطر الى اطلاق سراح نلسون ماندلا و الموافقة على اجراء استفتاء عام لاختيار نوعية نظام الحكم في البلاد. والكيان الاسرائيلي العنصري هو الآخر، ونتيجة للخلافات بين الاحزاب السياسية وتصاعدة موجة الاحتجاجات والمواجهات الشعبية، سيما بعد مجيء نتانياهو وتسلمه مقاليد الحكم، دخل مرحلة جديدة لم يعدد بالامكان تجاهل شعارات (انهاء التمييز العنصري) و (اطلاق سراح السجناء السياسيين).

د ـ مع قيام الثورة الاسلامية في ايران ومساندة الحركات المعادية للعنصرية، ودعم استقلال ناميبيا، و اطلاق سراح ماندلا، واعطاء الاولوية لتحرير فلسطين باعتبارها القضية الاولى بالنسبة للعالم الاسلامي، اضافة الى تشكيل محور المقاومة، كل ذلك ساعد في الاسراع بانهيار و تلاشي النظام العنصري، وبالتالي التسريع بزوال اسرائيل.

وفي النهاية وبعد سنوات النضال الدامي لشعب جنوب افريقيا ضد التمييز العنصري، ومعارضة المجتمع الدولي للعنصرية، اضطرت حكومة جنوب افريقيا الى اجراء استفتاء في عام ١٩٩٢، وعلى الرغم من عدم السماح للسود بالمشاركة في هذا الاستفتاء، غير ان السكان البيض في هذا البلد صوتوا لصالح إلغاء نظام التمييز العنصري والتخلص منه.

واليوم حيث نقف على اعتاب يوم القدس، ثمة شواهد متعددة نظير تصاعد الانتفاضة في الاراضي الفلسطينية المحتلة، وتنامي المعارضة الدولية لتوسيع المستوطنات، اضافة الى اضطراب الاوضاع الداخلية، وتوجهات محور المقاومة، كل ذلك يلفت الى تسارع مسار تداعي الصهيونية وانهيارها. وبمرور الوقت وبالتدريج، اخذ ابناء الاراضي المحتلة ـ سواء المسلمين والمسيحيين واليهود ـ يتطلعون الى وضع حد للاوضاع غير المستقرة، وذلك من خلال المطالبة باجراء الاستفتاء الذي دعت اليه الجمهورية الاسلامية الايرانية.

ولا يخفى ان عمر النظام العنصري في افريقيا الجنوبية لم يتجاوز الخمسين عاماً، لذا فان عمر الصهيونية في الاراضي المحتلة لن يكون طويلاً هو الآخر. وان ما اقترحة سماحة قائد الثورة الاسلامية آية الله الخامنئي، مستمد من وقائع ماثلة على الارض، ويعتبر حلاً عملياً.